على طاولة جوزيف سماحة

أَشْعر أنّكَ ستموت يا جوزيف، حيث أنتَ، من دون جرائد ومجلاّت وكُتُب. ستَفْقع، ستبجّ، لأنّ أسابيعَ بطولها مَضَتْ وأنت لا تَعْرف شيئًا عن أحوال البلد والعالم. لذلك قررتُ يا صديقي، الذي لم أجتمعْ به إلاّ خمسَ مرّاتٍ في حياتي، أن أَجْمعَ لك نتفًا من هنا وهناك، أخبارًا ومقالات، أضعُها على طاولتك، كأيّ موظّفٍ نجيب؛ لعلّكَ تتسلّل ليلاً، في غَفْلةٍ من الزمان ومنّا، إلى مكتبكَ في جريدة الأخبار، فتلتهمُها في ساعةٍ أو أقلّ، وتُسْرعُ من ثم إلى حيثُ كنتَ، لتُكْملَ معاركَك الفكريةَ مع مَنْ سبقوك من قادة الفكر... إلى المنبرِ الآخر.

فلنبدأْ ببعض الأخبار السريعة على سبيل المقبِّلات.

نعمة اللّه أبي نصر، نَعَم، النائب في «كتلة الإصلاح والتغيير،» زعلان لأنّ حوار برّي ـ سعد الحريري يستبعد الطائفةَ المارونيةَ «التي هي الطائفةُ المؤسِّسةُ للبنان الوطن.»[1] هيئةُ قدامى ومؤسِّسي القوات اللبنانية تستعدّ لإطلاق حركتها التنظيمية الجديدة، وشعاراتُها تتضمّن المفردات التالية: «خيار المسيحيين،» «المجتمع المسيحي،» «دورْ المسيحيين،» «النوّاب المسيحيون،» «الوضع المسيحي.»[2] شبابُ المعارضة مازالوا ملبِّصين في ساحتَي الاعتصام في الوسط التجاري، وجماعةُ ١٤ آذار مازالوا يَصْرخون ويحتجّون على «احتلال» الوسط التجاري (بالمناسبة، مرّتْ ذكرى ضحايا الإعمار من دون أيّ صراخ أو احتجاج. أتذْكر يا رفيق؟ في شباط ١٩٩٦ اكتسحتْ جرّافاتُ سوليدير أملاكًا قديمةً في ما سيصبح الوسطَ التجاري، فقَتَلتْ ستةَ أفراد من عائلة عيّاد، إضافةً إلى سبعة عمّال). الموالون والمعارضون في لبنان ينتظرون اتّفاقَ السعودية وإيران، وجميعُهم يتحدّثون عن الاستقلال ورفضِ التدخّل الأجنبي. محمود عبّاسَ عيَّن محمد دحلان، الذي تتّهمه «حماس» وفصائلُ أخرى بأنّه رأسُ حربةٍ للمشروع الأميركي ـ الإسرائيلي، مستشارًا للأمن القومي.[3] رئيسُ اتحاد الكتّاب العرب في سورية، د. حسين جمعة، يُشيع أنّ سعد اللّه ونّوس سَرَقَ أعمالَ أبي خليل القبّاني، ويستند في اتّهامه إلى كتابٍ للدكتور علي عقلة عرسان.[4] بارجة حربية لليونيفيل تجوب الشاطئَ المقابل لمخيّم نهر البارد، حيث يوجد عناصرُ لـ«فتح الإسلام.»[5] معاريف تَكْشف أنّ شيراك، المنادي أبداً بحريّة البلدان في اتّخاذ قراراتها المستقلّة، أبْلَغَ إسرائيلَ، في حمى الحرب الإسرائيلية على لبنان صيفَ ٢٠٠٦، عرضًا يقضي بأن يجتاح الجيشُ الإسرائيلي سوريا ويُسقطَ النظامَ السوري.[6] تانيا رينهارت ماتت بالسَّكْتة في نيويورك، التي قَدِمتْ إليها بعد أن غادرت الكيانَ الصهيوني نهائيًّا احتجاجًا على قمعه وإجرامه؛ ولاشكّ في أنّك تذْكر أنّها كانت واحدةً من الشخصيات الإسرائيلية النادرة التي دَعمتْ مقاطعةَ العالم للمؤسّسات الإسرائيلية، ولاسيّما الأكاديمية، بما يتجاوز موقفَ «اليسار الإسرائيلي» العنصري.

سماح إدريس

(التتمة ص ٩٠ ـ ٩٦)

١ ـ جريدة النهار، ١٣/٣/٢٠٠٧.
٢ ـ جريدة السفير، ١٣/٣/٢٠٠٧.
٣ ـ جريدة الحياة، ١٩/٣/٢٠٠٧.
٤ ـ المصدر السابق.
٥ ـ السفير، ١٩/٣/٢٠٠٧.
٦ ـ المصدر السابق. وقد نَفَتْ فرنسا ذلك.

تتمة الافتتاحية ص ١

على طاولة جوزيف سماحة

هيّجَتْكَ المقبِّلاتُ؟ لننتقلْ، إذن، إلى أخبارٍ أكثر دَسَمًا.

وأولُ ما أحبّ أن أنقلَه إليكَ يا صديقي هو تزايدُ الاعتداءات على الكاتب والكتاب في الوطن العربي خلال الأسابيع الماضية التي تَلَتْ رحيلَك. لعلّكَ تَذْكر أنّ نوال السعداوي غادرتْ، قبيْل غيابك، مصرَ إلى بلجيكا بعد أن قَدّم المحامي نبيل الوحش (هذا اسمُه، على فكرة، لا لقبُه) بلاغًا تكفيريًّا ضدّها وضدّ ابنتها منى حلمي في نهاية كانون الثاني. والوحش، نفسُه، سبق أن قَدَّمَ بلاغًا إلى النائب العامّ ضدّ الإعلامية هالة سرحان بتهمة تشويه سمعة مصر بسبب حلقة أعدّتْها لقناة روتانا عن «بنات الليل.» على كلّ حال، بعد حادثة السعداوي وسرحان، جاءنا خبرُ إتلاف ١٥٠٠ نسخة من كتاب قولْ يا طير في فلسطين بحجّة احتوائه تعبيراتٍ تَخْدش الحياءَ، مثل: «قَحْبة» و«شرموطة» و«بزاز» (بالمناسبة، هل يُسمح لكم، فوق، بتداول هذه المفردات؟). ويا جوزيف، لا يمكن أن تتصوّر حجمَ الاعتراض الذي اكتسح الساحةَ الفكريةَ العربية: سُيِّرت المظاهراتُ الشاجبة، وصدرت البياناتُ المندِّدة، وصَدَحتْ موسيقى الحرية، حتى اضطُرّ وزيرُ التربية والتعليم الفلسطيني ناصر الشاعر (من حركة حماس) إلى التبرُّؤ من إجراءات التَّلف والزّعم أنّها تمّتْ من دون علْم وزارته (حَصَلَ معنا نفاقٌ شبيهٌ قبل خمسة أعوام، حين زعمت الرقابةُ المصريةُ أنّها لم تَمْنعْ عددَ الآداب المخصَّصَ للرقابة في مصر، مع أنّها أبلغتْ شركةَ التوزيع العكسَ). لكنْ، بعد أن تراجعت الوزارةُ المذكورة، تواصلت الاحتجاجاتُ (وراهُمْ وراهُمْ والزمن طويل!)، وانهال التقريعُ على حكومة حماس، وعلى وزيرِها الذي رُمي بمختلف النعوت، وضِمْنَها نعوتٌ استشراقيةٌ من قبيل «متخلّف» و«غير حضاري.»

«قولْ يا طير» يفضح القامعين... والمنافقين معا.

طبعًا، حماس ووزيرُها يستحقّان البهدلة. بل إنّ ما طاوَلَهما لا معنى له إلاّ إذا ترافَقَ مع إعادة طبعِ ما أُتلف، والاعتذارِ إلى مؤلِّفَي الكتاب (كناعنة ومهوّي) وإلى القرّاء عامةً. ولكنّي أراك تتساءل معي، يا جوزيف، أين كان أولئك المثقفون الزاعقون، الصاخبون، الشّاجبون، المستنكرون، حين اعتَدَتْ سلطةُ حركة «فتح» على حريّة الفكر والتعبير؟ حفنةٌ قليلةٌ منهم فحسب استنكرتْ منعَ الرئيس الشهيد عرفات كتابَيْ إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية ونهاية عملية السلام (ولا يقولنّ قائلٌ إنّهما لم يُمْنعا؛ فهما من إصدار دار الآداب التي أعملُ فيها). وأين كانوا حين مُنعتْ صحيفةُ النهار الفلسطينية من دخول المناطق الخاضعة لسيطرة السلطة السابقة (غزّة وأريحا آنذاك) لمدة شهر، بعد أن نَشَرتْ مقالاً انتقَدَ اتفاقيات أوسلو؟[١] ومَنْ منهم زَعَقَ ضدّ مَنْعِ دخول صحيفة القدس إلى غزّة لعدّة أيام بعد سنة تقريبًا من حصول الحادثة أعلاه؟[٢] ومَنْ منهم شَجَبَ واستنكَر

١ ـ ٢ ـ عدنية شبلي، «الرقابة الذاتية في الإعلام الفلسطيني،» الآداب ٧/٨، ٢٠٠٤، ص ٧١ ـ ٧٣.

وأدان اعتقالَ الصحفي داود كُتّاب بسببِ نشرِه مقالاً انتقد فيه عملَ السلطة؟[1] ووقائعُ المنع والقمع أثناء حكم «فتح» وهيمنة «عبَدَة ربِّ السلطة» أكثرُ من أن تُحْصى. وكُلُّ هؤلاء كانوا يبرِّرون «أخطاءَ» السلطة السابقة بأنّها ماتزال «في بداية طريقها،» وأنّ علينا ـ من ثم ـ أن نغضَّ الطرفَ قليلاً حرصًا على التجربة الفلسطينية الرائدة من الانهيار. الطريفُ، يا صديقي، كما تلاحظ، هو أنّ مقرِّعي حركة «حماس» الآن لا يَسْتخدمون الحجّةَ نفسَها للتخفيف من أخطاء حماس، مع أنّ الحركة الأخيرة تخوض اليومَ، هي الأُخرى، تجربةً جديدةً في الحُكْم! وبكلمة، فإنّ ما فعله مستنكرو اليوم/ مبرِّرو الأمس انتهازيٌّ، ومعيبٌ، ومحقِّرٌ للحريّة، لأنّهم يَسْتخدمون «الدفاعَ» عنها محضَ سلاحٍ للانقضاض على خصومهم السياسيين... لا غير.

إنّ النزعات القمعية أو الساكتة عن القمع مقيتةٌ فعلاً يا جوزيف، سواءٌ جاءت من نبيل الوحش أو عبد الصبور شاهين (مكفِّر نصر حامد أبي زيد) أو حماس أو القاعدة أو الإخوان أو الرهبانيات المارونية أو المعتدين على الأب غريغوار حدّاد... أو جاءت أيضًا من انتهازيي العَلْمانية والماركسية والليبرالية... أو من المنظَّمات غيرِ الحكومية التي أكثرَ ما تَرْفع عقيرتَها بالمواطنية والديموقراطية حين يكون الجاني جهةً سياسيةً دينيةً، لكنّها تَصْمت صمتَ القبور عن شَطْب السلطة الفلسطينية لحقّ العودة، أو اعتقالِها لأحمد السعدات، أو تسليمِها المناضلين المحاصرين في كنيسة المهد إلى العدو الصهيوني، على سبيل المثال لا الحصر.

❖ ❖ ❖

الحادثة الثانية التي طاولت الفكرَ والكتبَ أثناء غيابكَ يا جوزيف هي تفجيرُ شارع المتنبِّي في بغداد. فلقد أفادت الأخبارُ منذ أيام أنّ «انتحاريًّا» فَجَّرَ نفسَه هناك، فقتل المتنبِّي وعروةَ بنَ الورد والجاحظ وأبا الفرج والكواكبي وكتّابَ شعر والآداب معًا، ودفعةً واحدة، مع محبّيهم وباعتهم وشُراتهم. وكما حَزِرْتَ، فقد وُجِّهتْ أصابعُ الاتّهام فورًا إلى «القاعدة» والمقاومة العراقية، واستُبْعدت المخابراتُ الأميركيةُ بالطبع: فالأميركان لا يَفْعلونها. أعوذُ باللّه. هم لم يَنْهبوا المتحفَ العراقي عامَ ٢٠٠٣. وتجّارُهم لم يَسْرقوا اللوحاتِ والآثارَ العراقيةَ ثم باعوها. وكلُّ الذين يَزْعمون مثلَ هذه التُّرَّهات هم أصحابُ «نظرية المؤامرة» من القوميين الخشبيين المنقرضين (المنقرطين) الذين يضعون صورةَ عبد الناصر قرب طاولتهم، مثلَكَ يا جوزيف، ويُوهِمون أنفسَهم والآخرين بأنّ أميركا مبعثُ كلِّ الشرورِ في الدنيا والآخرة.

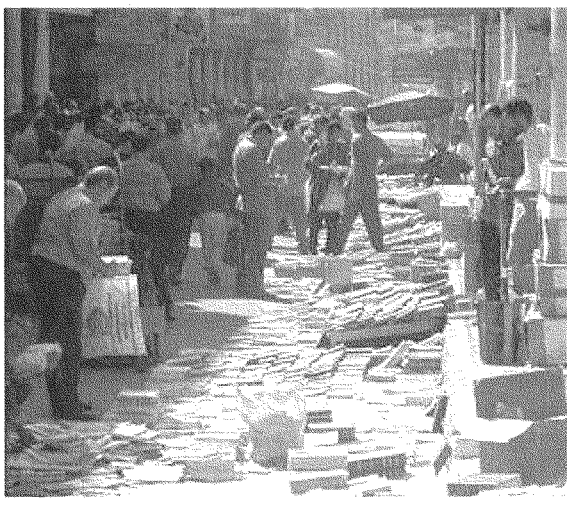

شارع المتنبي: هل سارقو المتحف يعجزون عن تفجير الكتب؟

١ ـ المصدر السابق.

أتخيّلُكَ الآن تَصْفن، وتحاول أن تستعيدَ شيئًا. لعلّكَ تحاول أن تتذكّر أين قرأتَ ما قد يعزّز شكوكَنا المؤامراتية. لا تقلقْ. لقد وضعتُ في كومة المقالات مقالَ جو كوِنْ (Joe Quinn)، الذي لا أشكّ في أنّك قرأْتَه قبلَ رحيلك. ومع ذلك فإنّك تعيد قراءتَه، وتبتسم:

فهذا الكاتب يستند إلى شهود عيان عراقيين ليُثْبتَ أنّ المخابرات الأميركية تقوم بالكثير من التفجيرات «الانتحارية» في العراق، ولاسيّما في المناطق ذات الكثافة السُّنّية أو الشيعية. فمثلاً، يصادر الجنودُ الأميركيون رخصةَ قيادة سيّارة، تابعةً لأحَد العراقيين، ويَطْلبون منه استردادَها من معسكرٍ أميركي قرب مطار بغداد. فيذهب العراقيُّ المسكين إلى هناك بسيّارته، ويَدْخل غرفةً للتحقيق يَمْكث فيها نصفَ ساعة. هناك يخبرونه أنّ العراق «باتَ مستقلاً،» وأنّ عليه أن يستردّ رخصتَه من مركزٍ للشرطة العراقية في الكاظمية. يتوجّه صاحبُنا إلى الكاظمية، لكنّه لا يَلْبث أن يَشْعرَ بثقلٍ في سيّارته، ويَشْتبه في تحليقِ طوّافةٍ أميركية فوقه طوال الطريق. يتوقّف ويَفْحص سيّارتَه، فيَعْثر على كميّةٍ كبيرةٍ من المتفجِّرات في المقعد الخلفي وفي البابيْن الخلفييْن. ويتّضح له أنّ الأميركان فَخّخوا سيّارتَه أثناء التحقيق وأرسلوه بها إلى حيّ الكاظمية... ذي الغالبية الشيعية!

تَشْتم أختَ المخابرات الأميركية، وتواصل قراءةَ سردِ جو كوِنْ لإفادات شهود عيانٍ عراقيين قابَلَهم شخصيًّا. الحاج حيدر أبو سجّاد (٦٤ عامًا) كان يقود شاحنتَه المعبّأةَ بالبندورة، برفقة ابنه (١١ عامًا)، متّجهيْن من الحلّة إلى بغداد. يوقفه حاجزٌ أميركي ويسأله عن وجهته، ثم يفتّش الشاحنةَ بعد أن يَطْلب منهما مغادرتَها. وما إنْ يواصل الحاجُّ وابنُه رحلتَهما إلى بغداد حتى ينبِّه الابنُ أباه إلى أنّه رأى الجنودَ يضعون في الشاحنة شيئًا رماديًّا بحجم البطّيخة. يوقف الأبُ سيرَه ويفتّش الشاحنة، فيَعْثر على قنبلةٍ موقوتة. لقد كان هدفُ الأميركان أن يفجِّروا الشاحنةَ في بغداد، وأن يدّعوا بعد ذلك أنّ «الانتحاريين» هما من رجال المقاومة «السُّنّية»!

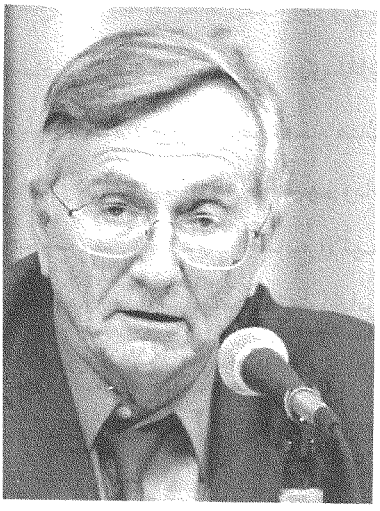

سيمور هيرش: أميركا قد تدعم ألدّ أعدائها في مواجهة إيران وحزب الله.

أَعْلم يا جوزيف أنّ هذه الروايات، وغيرُها كثير، قد لا تغيِّر رأيَ المصمِّمين على إلصاق كلِّ التهم المشينة بالمقاومة العراقية، واستبعادِ ضلوع الأميركان في أيّ شيء. أما نظرية «الفوضى الخلاّقة،» التي قد تَنْدرج ضمنَها عمليةُ تفجير شارع المتنبّي، فمآلها، في رأيهم، هو مآلُ نظرية المؤامرة سواءً بسواء: إلى سلّة المهمَلات. فهي نظريةٌ ممجوجةٌ، قديمةٌ، بل وcaduc أيضًا، بحسب تعبير الرئيس ياسر عرفات، رحمه الله، في وصف الميثاق الوطني الفلسطيني. وفي الأثناء، يسعى كارهو الذاتِ العربُ إلى تهشيمِ كلِّ نظريةٍ تفيد التآمرَ الأميركيَّ المسبَّقَ. وهكذا يَسْخرون، كما فعل النائبُ القوّاتي جورج عدوان على الـLBC، من تحليل سيمور هيرش، الذي كَتَبَ مقالاً طويلاً بعد رحيلك

بتسعة أيّام. نعم، لقد وضعتُه ضمن دستة المقالات على طاولتكَ، يا جوزيف. اقرأْه، رجاءً. إنّ هيرش يستنتج فيه أنّ الإدارة الأميركية تعيد توجيهَ سياستها العامة وعمليّاتها السريّة في الشرق الأوسط صوبَ «توسيع النزاعِ المذهبي بين المسلمين الشيعة والسُّنّة،» وصوبَ إحداثِ «مواجهةٍ مفتوحةٍ مع إيران.»[1] بكلامٍ آخر، قد نرى دعماً أميركيّاً للمتطرِّفين السُّنّة، الذي كانوا ألدَّ أعداءِ أميركا (القاعدة؟ حارقي السفارة الدانماركية في بيروت؟ جُنْد الشام؟)، في مواجهة إيران وحزبِ اللّه. خبيصة؟ إنّها لكذلك بالتأكيد. ولكنْ أليست هذه، يا صديقي، من معالمِ الفوضى الخلاّقة التي يَأْمل الأميركيون أن تُسْهمَ في ولادةِ شرقهم الأوسطِ «الجديد» بعد «الإجهاز» على شرقنا الأوسطِ «القديم»؟

«إجهاز»؟

ربّما تَعتقد أنّني أنا مَنْ يبالغُ الآن في تصوير الأمور يا جوزيف، وأنّني بتُّ فعلاً مسكوناً بالمؤامرة أكثرَ ممّا ينبغي. لذا، وتحسُّباً من أن ترميَني بهذه التهمة، فقد دَسَسْتُ لك خبراً نشرتْه جريدةُ السفير بعد ثلاثة أسابيع من رحيلك عنّا.[2] يشير الخبرُ إلى أنّ ويزلي كلارك، وهو جنرالٌ أميركي متقاعد والأمينُ العامُّ السابقُ لحلف شمال الأطلسي، كَشَفَ أنّ وزارة الدفاع الأميركية أَصدرتْ عامَ ٢٠٠٢ مذكّرةً تصف كيف «ستُجْهز الولاياتُ المتحدةُ على سبعِ دولٍ خلال خمس سنوات.» نحن الآن، إذن، لا نتحدث عن قَتْلٍ شارعٍ للكتب والثقافة، بل عن اغتيال بلدانٍ بأكملها. والدولُ السبعُ المعنيّة تبدأ بالعراق، وتنتهي بإيران، مروراً بسوريا ولبنان وليبيا والصومال والسودان. ومع ذلك، يا جوزيف، لا يزال كثيرون من مثقفينا وصحافيّينا يعتقدون أنّ نكبات منطقتنا هي، فقط، مِنْ صنع أبو عدس ورستم غزالة والزرقاوي... و«فَتْح الإسلام» (والأخيرة منظّمةٌ جديدة لم تكحِّل عينيْكَ برؤيتها).

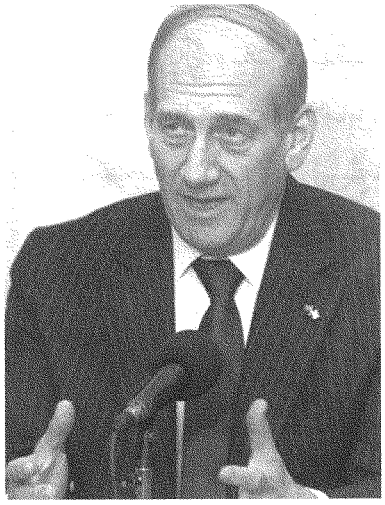

برسم أصحاب «توقيت المقاومة الخاطئ»: أولمرت يعترف بالتخطيط للغزو قبل ٤ شهور على الأقل.

❖ ❖ ❖

أَثقَلْتُ على صدرِكَ بهذه الأخبار، صديقي؟

قليلٌ من الأخبار السارّة، إذن. إليكَ، أولاً، الغارديان في ٩/٣/٢٠٠٧.[3]

فرئيسُ وزراء العدوّ، إيهود أولمرت، اعترَفَ، بعد عشرة أيام من غيابك، بأنّ إسرائيل خَطّطتْ لغزو لبنان قبل أربعة شهور على الأقلّ من أَسرِ حزب اللّه

◀

١ ـ Seymour Hersh, "The Redirection," New Yorker, March 5, 2007.

١ ـ السفير، ١٥/٣/٢٠٠٥.

٢ ـ Conal Urquhart, Guardian, March 9, 2007.

الجنديين الإسرائيليين في ١٢ تموز. خبرٌ مدهشٌ يا جوزيف، أليس كذلك؟ إنّه، على الأقلّ، يعطينا شيئًا من الرضا الذاتي عن مواقفنا، وسطَ الكمّ الهائل من الخسّة الليبرالية. أَتَذْكر حين حَمَلَ إليكَ صديقُنا عمر نشّابة، بعد أيام قليلة من الغزو الإسرائيلي في ١٣ تموز ٢٠٠٦، بيانًا بتأييد المقاومة، صُغْتُه بنفسي، وجَمَعْتُ خلال أيامٍ قليلةٍ تواقيعَ حوالى خمسمئة عاملٍ وعاملةٍ في الشأن الثقافي في لبنان والعالم؟ كنتَ يا جوزيف أوّلَ مَنْ وَقَّعه، في حين أحجم عن ذلك كثيرون من المثقفين الآخرين، ممّن لا أشكُّ في وطنيّتهم، لجملة أسبابٍ، منها أنّهم لم يستسيغوا إدانةَ بياننا لموقف السنيورة التّنصُّلي من عملية الأَسْر، ولأنّهم كانوا يظنّون أنّ الاجتياحَ الإسرائيلي تمّ نتيجةً لذلك الأَسْر. لقد غرق مثقفونا وصحافيونا آنذاك في قضيةٍ تافهةٍ اسمُها «سوء توقيت عملية الأَسْر.» وإنّ اعترافَ أولمرت اليوم يُثْبت، لمن لايزال يحتاج إثباتًا، أنّ عداءَ إسرائيل لنا لا علاقةَ له بتوقيت المقاومة، بل بوجود المقاومة نفسها، أيْ بوجودِ قرارٍ عربي، كامنٍ أو معلن، رسميٍّ أو شعبيٍّ أو فردي، باستعادة الحقوق العربية، مهما طال الزمن.

❖ ❖ ❖

إليكَ أيضًا هذا الخبرَ السارّ الذي قرأتُه مؤخّرًا، وإنْ صَدَرَ قبيْل رحيلك. ومع أنّني أشكّ في ألاّ تكونَ قد اطّلعتَ عليه لأنّك، ما شاء الله، تَطّلع على كلّ شيء، فسأَعْرضه أمامَكَ في أيّ حال، ولو على سبيل التذكير. أُنظرْ: إنّه استطلاعٌ قامتْ به «زُغبي انترناشونال،» ذاتُ الصِّدقية العالية، وصمّمه الدكتور شبلي تلحمي، وشمل ٣٨٥٠ شخصًا من مصر والأردن ولبنان والمغرب والسعودية والإمارات العربية، وهي بلدانٌ تؤيِّد حكوماتُها الولاياتِ المتحدة. يُفيد هذا الاستطلاع بأنّ ٨٠٪ من العرب هناك يَعْتبرون إسرائيلَ وأميركا «أكبرَ خطريْن خارجييْن على أمنهم،» وأنّ ٦٪ فقط يَعْتبرون إيرانَ هي الخطر. ويَكْشف الاستطلاعُ أيضًا أنّ ٤٠٪ من المستطْلَعين يرونْ بوش الزعيمَ الأجنبيَّ الأكثرَ بعثًا على الكراهية، «متقدِّمًا» في ذلك على شارون وأولمرت معًا... وبنسبةٍ هائلة. الأطرفُ من ذلك أنّ اللبنانيين أنفسَهم (رغم ثورة الأرز) يَكْرهون بوش ضعْفيْ كراهيّتهم لأولمرت الذي دَمَّر وطنَهم قبل شهور فحسب!

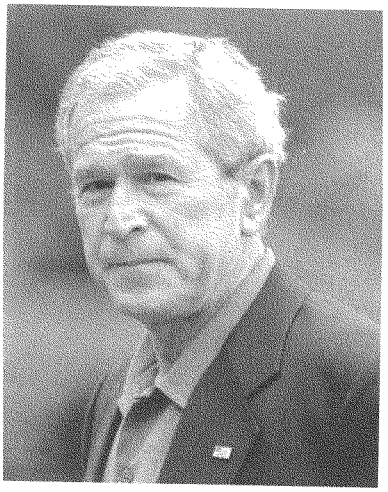

«زغبي انترناشونال»: ٨٠٪ من العرب يعتبرون إسرائيل وأميركا أكبر خطريْن، و٤٠٪ يعتبرون بوش الأكثر مكروهية.

ويَكْشف استطلاعُ «زغبي انترناشونال» أيضًا أنّ ٦١٪ من العرب يَعْتبرون أنّ من حقّ إيران متابعةَ برامجها النووية «ولو كانت هذه البرامجُ مصمَّمةً لتطوير أسلحةٍ نووية.» ويفسِّر تلحمي ذلك بأنّ الشعب العربي «لا يَنْظر إلى القضايا المهمّة بمنظار الخلاف السُّنّي ـ الشيعي... بل بعدسة الخلافات الإسرائيلية ـ الفلسطينية والغضبِ [العربي] على السياسة الأميركية في المنطقة.» وفي ما يخصّ العلاقاتِ السُّنّيةَ ـ الشيعيةَ تحديدًا، وهي التي أَحْسبُ أنّها ماتزال أحدَ أهمّ هواجسك

يا جوزيف ولو بعد موتك، فإنّ تلحمي يستنتج من الاستطلاع المذكور أنّ «أكثر السُّنة العرب يتّخذون جانبَ الشيعة في الأمور المهمّة.»

ماذا يعني ذلك أيُّها الحبيب؟ يعني، ببساطة، ما أفنيْتَ عمرَك في ترداده: وهو أنّ كلّ المحاولات الأميركية والرجعية العربية (معزَّزةً بثوريي ساتشي وغوتشي وH&C Leo Burnett) لم تُنْسِ العربَ عدوَّهم الأول: إسرائيلَ والسياسةَ الأميركية. وهذا لا يُنفي، طبعًا، وجوبَ مواصلة نقدنا للنظام الإيراني، الرجعيِّ اجتماعيًّا، والقامعِ داخليًّا، والمرتكبِ للاحتلال ضدّ جزرٍ تابعةٍ للإمارات العربية، والداعمِ للميليشيات الطائفية في العراق. غير أنّ الشعبَ العربي يدرك «بالغريزة» (التي ذكرتَها مرتيْن في مقالك الشهير في السفير في ٢٢ / ٨ / ١٩٨٢)،[١] وبالوقائع، أنْ لا معنى على الإطلاق لأن يَشنَّ حربًا جديدةً ضدّ «أعداءٍ» جددٍ، وهو لم يتحرّر بعدُ من أعدائه التاريخيين. وفي هذا الصدد، وَضعتُ أمامكَ مقالاً كتبه بعيْدَ رحيلك الدكتور عادل سمارة من فلسطين، وجاء فيه:

«أمّا معنى أن ننتقلَ إلى حربٍ جديدةٍ [ضدّ إيران] ونحن لم نتخلَّصْ من الهزائم المتراكمة منذ قرون؟ وأيّة حرب؟ حربٌ هي داخلَ الوطن، وليست على الحدود مع إيران. حربٌ ستكون في لبنان والبحرين والسعودية، والعراقِ بالطبع.»[٢]

وشبيهٌ بذلك ما كتبه محمد عبد الحكيم ذياب بعد أسبوعٍ من غيابك:

«إنّنا نُقرّ بأنّ هناك أخطاءً إيرانيةً في العراق والخليج. إلاّ أنّ إيران ليست وافدةً على المنطقة مثلَ الغزاة القادمين من وراء البحار. هي جزءٌ منها، مثلما العربُ تمامًا... وما يتمّ بالمقاومة والكفاح المسلّح ضدّ الغزاة والمحتلّين والمستوطنين أثناء معارك التحرير، يجب أن يتمّ مع إيران بالحوار والتفاوض والتشاور.»[٣]

في افتتاحيّتك للعدد الأول من الأخبار يا جوزيف كنتَ واضحًا حين شدّدتَ على «أنّنا ننتمي، سياسيًّا، إلى معسكرٍ رافضي الهيمنة، وهو معسكرٌ يمتدّ من قلب الولايات المتحدة الأميركية إلى أقاصي الشرق وأفريقيا وأميركا الجنوبية وأوروبا.» لكنّ ذلك لم يَمْنعْكَ من أن تضيفَ، سريعًا، حرصَكَ على «التعددية والديموقراطية والموضوعية والحداثة والثقافة الإبداعية.»[٤] هذا الموقف،

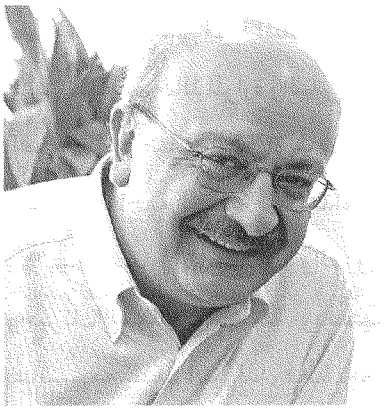

جوزيف سماحة: «خياراتُنا صحيحة بصورة إجمالية ومبدئية.»

١ ـ جوزف سماحة، «جيلُنا،» السفير ٢٢ / ٨ / ١٩٨٢.
٢ ـ كنعان، النشرة الإلكترونية ٢ / ٣ / ٢٠٠٧. www.kanaanonline.org
٣ ـ القدس العربي، ٣ / ٢ / ٢٠٠٧.
٤ ـ جوزيف سماحة، «توقيتٌ صائب،» الأخبار، ١٤ / ٨ / ٢٠٠٦.

الواضحُ تجاه الخصوم الواضحين، والنقديُّ تجاه الحلفاء المحتملين والفعليين، هو ما يَعْجز عن قبوله صحفيون بليدو الذهن أمثالُ مايكل يونغ، الذي كَتَبَ في تأبينك (أو تشويهك) أنّ «تأييدَك لإيران وسوريا وحزب اللّه» قد أدّى إلى انمساخك (metamorphosis) باتجاه نقيضِ ما كنتَه «في السابق» (أيْ قبل ترؤّسكَ لجريدة الأخبار)، أيْ إلى نقيض العلمانية.[1] صحفيو الدرجة العاشرة يُزعجهم أن يروْا مثقفين، أمثالَك، يتحلّوْن بالمبادئ الثورية الثابتة، وبالاستقامة الأخلاقية في الوقت نفسه: مثقفين يحاربون الهيمنةَ الأميركية، ويَشْجبون ـ في اللحظة عينها ـ القمعَ الأصولي واعتقالَ ميشيل كيلوَ، على سبيل المثال لا الحصر.[2]

❖ ❖ ❖

وأخيراً، اسمحْ لي يا جوزيف بأنْ أدسَّ بين كومة المقالات التي وضعتُها على طاولتكَ مقالاً تداولتْه بعضُ الصحف بعد رحيلك. إنّه بقلمك أنت! ومع أنّه مقالٌ قديمٌ جداً، كتبتَه قبل خمسةٍ وعشرين عاماً، فإنّه جديدٌ بكلّ المعايير، حتى ليمكن أن نقرأه اليومَ، وغداً، وبعد مئة سنة، من دون أن يَفْقدَ طزاجتَه وراهنيّتَه واستقامتَه. لقد كتبتَ ذلك المقالَ صبيحةَ مغادرة مقاتلي الثورة الفلسطينية بيروتَ في آب ١٩٨٢، وفيه أعلنتَ التمسُّكَ بخياراتنا «رغم المرارة واليأس.»[3] وما كانت، وتبقى، خياراتنا يا جوزيف؟ إنّها «لبنان العربي، والوحدة، والديموقراطية، والاشتراكية.» فهذه الخيارات، كما أكّدتَ آنذاك، تبقى «صحيحةً بصورةٍ إجماليةٍ ومبدئية.»

نعم، يا رفيق. ففي فورة المنقلبين على تاريخهم وشعاراتهم وشهدائهم، وفي فورةِ مَنْ يحاولون «غَسْلَ ماضيـ[ـهم] عن طريقِ تضخيمِ حالةِ المرارة واليأس،» يبدو التمسُّكُ بالمبادئ، بالتاريخ والشعارات والشهداء، أمراً جديداً! على أنّ الجديدَ الفعلي الذي أضفتَه إلينا هو ما مارسْتَه بكتاباتك، دفاعاً عن خياراتنا «الصحيحة بصورة إجمالية ومبدئية،» من تجديدٍ لأشكال المواجهة الثقافية ضدّ أعداء هذه الخيارات. فأنتَ لم تَسْتكن، مثلَ كثيرٍ منّا، من المتخشّبين فعلاً، إلى تلك الخيارات، ولاسيّما خيارا الاشتراكية والعروبة، دونما تمحيص. بل شَهَرْتَ عقلَكَ اللامعَ، ومهنيَّتَكَ الرفيعةَ، وجرأتَكَ النبيلةَ، وخبرتَكَ السياسيةَ الطويلة، ودَفَعْتَها ـ جميعَها ـ في معركة تجديد الخيارات الصحيحة وترهينها وتبْيئتها وترهيفها بما يتناسب مع المتغيّرات. لذا، فإنّنا، معشرَ أنصار «الخيارات الصحيحة بصورةٍ إجماليةٍ ومبدئية،» نحسّ كلَّ يومٍ بفقدانك: مؤلِماً، مُبْكياً، طازجاً، جارحاً، محفِّزاً... وجديداً على الدوام.

بيروت

---

١ ـ Michael Young, "Joseph Samaha: Farewell to a Paradox," The Daily Star, March 1, 2007.

٢ ـ جوزيف سماحة، «ميشيل كيلو،» الأخبار، ٣١/١٠/٢٠٠٦.

٣ ـ جويف سماحة، «جيلُنا،» السفير، ٢٢/٨/١٩٨٢.